مجموعة قصصية ١

انهار الجدار ......

بشرى أبو شرار

وانهار الجدار ......

اندفعت القلوب تجاه بوابة فلسطين ، انهار الجدار ، وازداد لونه قتامة ، علامة فارقة ، أو خط فاصل ما بين الموت والحياة ، شاهد من جماد ، لا يبوح باليد التي غرسته في أعماق الأرض ، وأنهضته جدارا أبكما ، أصما ، اليوم مال الجدار منكفئا على وجهه نحو الأرض ، داسته نعال الأطفال قبل الكبار ، تأرجحت على حوافه الصدئة طفلة بلل المطر جدائلها ، تحط بقدميها على ثناياه الملتوية ، تداعب الريح بأناملها ، ترسم علامة النصر ، كفها منبسطة ، مفتوحة ، متحدية ......

أبو ماجد يزاحم للوصول بين أجساد مكدودة ، يبحث عن مضخة لسحب المياه من جوف الأرض ، من بين الحشود ، يلتقي بشقيقته ، تشحذ همتها للوصل مستندة على ذراع ابنها محمود ، يحملا أوان صغيرة ، مملوءة بعسل من زهور سيناء ...

عبر الهاتف النقال ، يقص عليها أخيها حكاية عبوره إلى سيناء ، وحكاية ليل طويل ، سار فيه لمطلع الفجر ، تحت ندف المطر ، وفي برك الطين ، وعن شقيقتها وهي تحتضن أواني العسل ، عائدة إلى لمخيم ' جباليا ' ....

حط عليها السهوم ، أواني مملوءة بعسل سيناء ، ومضخة تسحب الماء من باطن الأرض !!......

غاية أخيها ، وغاية أختها ، أما هي فلقد غيبها ضباب رمادي ، ينداح للقتامة ، قد يصل إلى هناك ، فتسقط أمطارا تزيد الأرض بللا ...

عدسة التصوير تسكن على ملامح الرجل الواقف هناك ، يهتف من قلبه :

_ جدار سنقطع أوصاله ، ونبيعه في سوق الخردة القديم .

****** *******

يمامة هاربة ....

نقرت بعظمة إصبعها النحيل باب مكتبه ، تراجع الباب مشرعا أمامها ، وصوته عن قرب يسيج سمعها :
_ أدخل .
عينيها تتحركان بيقظة حائرة ، تحاول التقاط كل المشاهد في مساحة حجرة مكتبه الضيقة ، في ثوان أدركت أنه تراجع عن مكانه من أمام مكتبه واختار المقعد المجاور لمقعد وحيد ستجلس عليه ، وقف يستقبلها مصافحا ، يشد ساعدها ، محاولا اختلاس المسافة ما بينه وبينها ، وآثرت هي أن تحافظ على عرف المصافحة بشكلها الرسمي ، أجلسها وأخذ يدور في مساحة ضيقة ، ليجلس مجاورا لها ، والحديث برعم لم يتفتح بعد ، يسألها :
_ حدثيني عن أحوالك ؟
_ لا بأس ، نحمد الله .
_ وآخر كتاباتك ؟
_ كتبت حكايات كثيرة في أثواب قصص قصيرة .
_ حسنا ....
ساد سكون محاذر ، لاحظت أن مقعده أقل ارتفاعا من مقعدها ، ترنو إليه مسدلة الأهداب ، يرنو إليها مشرئبا ، مد يده مشيرا بإصبعه نحو رقبتها :
_ ما هذه ؟
تحفزت قواها على هدوء ظاهر ، تسأله :
_ هل توضح ما تقصده ؟!....
_ خال منمنم في منتصف رقبتك ، يضفي عليك أنوثة طاغية .
تحسست رقبتها في حياء سجين ، غاب الصوت عن أحبال حنجرتها ، تحاملت تنطق بعضا من كلمات :
_ لم ألحظه من قبل ......
تلمع عينه ، لفرحة اقتناص وشيكة :
_ أيعقل هذا ؟!.....
_ قد لا تصدق إن قلت أني لا ادقق النظر في المرآة ، حياتي رتم سريع .
مد يده في ثقة ، ليربت على ركبتها ، يبارك كلمات تقولها ، أقامت طولها وقد لمت أوراقها ، تظهر له حرصها على موعد تأخرت عنه ، نهض واللهفة تنهش كيانه ، مدت يدها مصافحة ، شدها نحوه ، يحتضنها في حميمية ، ولهيب أنفاس ، تنفلت منه في

صمت موجوع ، تلتف مسرعة نحو الباب ، يسرع الخطى وراءها ، يتوسل إليها أن تبقى ولو للحظات ، أشاحت له معتذرة ، أخذت درجات المبنى وقلبها يدق على جدار جلدها بحذر شفيف ، لفحتها ريح باردة ، لمت وجهها في راحة يدها ، وانكفأت على مقود سيارتها تزفر أنفاسا معذبة ....

******* ********

قصة قصيرة

أحلام متشابهة ....

يندفع كل يوم نحو الطريق ، متلهفا ليد أمه ، يلتقط من راحتها أنامل يقبض عليها ، ليصل باب السيدة هناك ....
تحفظ وقع خطواتهما ، ينقر بكف يده مسطح الباب الخشبي ، تلف مقبض الباب ، يقف متواريا خلف قامة أمه ، تلمح نعل حذاءه الصغير ، تنحني نحوه ، تلتقط ساعده ، تدخله البيت ، يدفس يده في بنطاله ، يخرج بقطعة من الحلوى ، يقدمها هدية ، تسأله كيف كان الطريق اليوم ؟...... يقص عليها حكاية وصوله من خلف بوابات السندباد الطائر :
_ كان الطريق زحام ، بكيت لأمي لنركب عربة تقلنا إلى هنا ، رفضت ، مشينا ودخلنا النفق ، مررنا بالبحر ، كدته يعدو نحونا ، تعجلت لحظة وصولي ، من خوف أن يصل إلينا ، فتغرقنا أمواجه .....
دخلت لحجرتها ، يتبع خطاها ، استوقفه مسطح برواز الصورة ، مائل للجدار فوق مكتبها ، يتأمل وجوه لا يعرفها ، تنبهت لحيرته ، داهمته بسؤالها :
_ أين أنا من هذه الوجوه ؟....
أشار إلى وجه أمها وهي تحتضن أخيها الصغير ، همس قائلا :
_ هذه أنت .
نظرت لوجهها وهي صبية ، بقامة ممتشقة ، ووجه مسالم ، يتوسد ابتسامة هادئة ، تسحبت نظرتها لوجه أمها ، هالها ما رأت ، صارت هي ، غابت أمها ، وبقيت هي وحيدة أمام الصورة .....

******** ********

إلى أمين ريان

حتحور ....

قال لها :
_ أنت حتحور الجميلة ، ولكن هل تكوني الحبيبة أم الأم فيها ؟.....
قالت له :
_ الأم حتحور .
سكت الكلام ، يلتفت نحوها ، يلامس قلبها في همسه ، يسألها :
_ هل سافرت لأمك ؟
_ ....
اندفن صوتها في قلبها ، بسؤاله حلقت بعيدا ، حطت على حافة قبرها ، يزغرد الأخضر من حولها ، ومن عينيها تندت دمعة ، ندى لأرض تضمها ......
أعاد عليها السؤال ، التفتت نحوه قائلة :
_ لم أستطع السفر لزيارتها ، حواجز ومعابر مغلقة ، الطريق إلى الوطن صار أنفاق وسراديب ، وأنا أحب حين تشدني الأرض إليها أن أدق بقدمي عليها ، لا أحب الدخول من سراديب مظلمة ، هو النور يا صديقي .
_ وأبناؤك هل تطمئنيها عنهم ؟
غاب السؤال وصار سوار أهدته لصبيتها ، سوار تدلى منه مصباح الذهب ، وملعقة وإبريق يبرق ، همست من فراغ يغرقه المدى :
_ نعم ، الأولاد يطلبونها ، ويطمئنونها ....
حط عليها السهوم ، تعجب لحالها ، لماذا لم تصارحه برحيلها ؟! وأن لها روح لم تبارحها ، صارت أمها كذبة حزينة ، وحال لسانها لا يطاوعها بأن تعلن للملأ بأنها الراحلة ، وفقدها يبني لها بيتا لا تشرع نوافذه للريح ، الفناء ينسج في كيانها مساحات تتغلغل في مسامات روحها ، عاد يناديها :
_ حتحور ....

******* *******

حارس مرمى ...... الشتاء الساخن

في بيتها حجرات كثيرة ، لها فيه حجرة وحيدة ، إلا من صوت مذياع لا يكف عن الكلام ، نور مكتبها ساكن على شحوبه ، كتبها المتناثرة على مساحة فرشتها ، حين تشد الغطاء إليها ، يتسحب معه بعض من كتب تجاور وسادتها ، كل ينتظر دوره ، ليبوح بين يديها بما خطته الأقلام ، ' ثلاث أيام عند أمي ' رواية ، كل مرة تتهيأ للنوم تقلبها بين يديها ، تتذكر لحظة التقطتها من معرض الكتاب ، أثار اهتمامها عنوان الرواية ، أمها التي رحلت ، هل تجد بعضا منها بين صفحاتها ؟..... يستلقي قطها على كتبها المتناثرة ، يلم رأسه بطرف يده المرتخية على أول حاجبه ، يحتضن ' عصافير النهر ' رواية ' محمد زتيلي ' من الجزائر 'من البدء كنت غريبا ..... من البدء كنت حزينا ، وهأنذا موغل في التغرب .....'

يمضي الوقت عنها مثقلا بالهم ، جميع من بالبيت يعرف أن جهاز التلفاز لا يجذبها إلا في أحداث طارئة قد تقلب موازين الساحة ، غزة في الشتاء الساخن ، هم من أطلقوا عليها هذه التسمية في اجتياح جديد ، تقلب جميع المحطات ، تبحث عن مشاهد من حيها القديم ، يصيح ابنها :

_ توقفي هنا يا أمي ، انه الكابتن ' الحضري ' لقد عاد من ' سويسرا '

أثار حديثه الدهشة لديها ، يكمل حديثه إليها :

_ ألا تعرفيه ، هو أمهر حارس مرمى ، من فضلك يا أمي ، أتركي لي المحطة لأستمع لحديثه .

تدفق في مساحة الشاشة الصغيرة ، صالون كبير ، وأرائك وثيرة ، والحضري يصغي لأسئلة مقدم البرنامج ، ومداخلات آخرين من جمهوره :

_ ماذا تقول فيمن وصموك بالخيانة ، ومن طلبوا بإسقاط الجنسية عنك ؟

_ ....

صفير عربات الإسعاف يدوي في قلبها ، ينتشلوا الصبية من تحت الردم ، نامت جدائلها على نار نهشت جلدها ، صارت بلون الرماد .....

تتداخل الأصوات في أذنها ، صوت فنان مشهور :

_ ' حضري ' نورت مصر يا حبيبي ، أنا حفيدي كان يبكي يوم سافرت .

غام وجه ' الحضري ' واحتضنت عينيه دمعة شجن ....

صفير عربات الإسعاف يدوي في فضاء الحكاية ، تناثرت أجساد الصغار ، يتشبث أحدهم في ثرى الأرض ، يهمس لأخيه ' قل الشهادة ' يحثه عليها ليصلا معا ، يحتضننا حفنة من تراب ، يذهبا بها لحفرة في قبر ...

_ هل تصف لي شعورك يوم وصلت مطار القاهرة ، بين حشود من الجماهير التي كانت في ساحة المطار ؟ من المؤكد أنك غاضب من الكثيرين ، عاجله بإجابة رشيقة :
_ طبيعتي بسيطة ، أي موقف انفعالي وحاد ، سرعان ما أنساه وأقلب صفحة جديدة .
صوت الزنانة يلاحق أذنها ، تسند المرأة رأسها للجدار ، تتهاوى ، يلوب قلبها ، تصرخ ملتاعة ' لم يعد عمر ، لن يأتي مرة أخرى ....'
الصبي مسجى على سرير في مستشفى ' الشفاء ' لا يستنشق من أنبوبة الأكسجين ، لا يتنفس هواء 'غزة ' صار يتنفس القبر المنتظر هناك ...
غافلها صوت مطرب مشهور :
_ يا ' حضري ' أنا بحبك ، وأولادي أكثر مني ، وأنت بطل ، ولن تنس مصر أبنائها الذين قدموا إليها كأس الأمم الإفريقية .
يبدأ المذيع جولته :
_ هل صحيح أنك وقعت على عقد ، في أحد بنوده تشكو ناديك ؟
_ أنا وقعت على ورقة باللغة الفرنسية ، وأنا لا أعرف الفرنسية .
يلتفت المذيع ، يخاطب مشاهديه :
_ يا جماعة ، يجب ان يوفر النادي متخصصين ليعلموا الرياضيين لغات أجنبية .
تصرخ المرأة ' أخي وأبي وزوجي ، كل عائلتي ، لم يتبق أحد .
يلثم الصبي التراب ، يستنشق من دمه ، نار الصلية أكلت بنطاله ، تعرى جلده ، يفضح حروق نامت على لحمه ، منشار يزحف على كيانه ، يتمتم الصبي ، يهذي ، يحاكي الصمت في المكان ، ينهض أنامله بإشارة الشهادة ، لم يقل وداعا ، لم يبك ألمه ، ماض إلى تعويذة عبوره ...
لا زال ' الحضري ' جالسا على مقعده الوثير ، يحتضن حشية يراقصها على ساقيه كما كرة القدم التي اعتادها ، يسأله أحد المشاهدين :
_ من الذي أعادك إلى مصر ؟
بدت علامات التوتر على ملامح وجهه المبتسم :
_ هو صديق لي ، ولا أستطيع أن أقول المزيد .
يبتسم المذيع ، يرفع يده مشيرا :
_ معنا خط من النمسا ...
على ساحة الزمن العصية ، يسابق الرجل اللحظات الحزينة ، الطفلة تتوسد ساعديه ، تسجى على سرير المستشفى ، تتعرى من ملابسها ، تعبث الأيدي في جسدها ، دماء تسيل ، يتشح الجلد بها ، والشظايا صارت أكبر من حجم الجسد ....
يعود وجه ' الحضري ' على ابتسامة مكابرة ، يسأله المذيع :
_ ما هي الكلمة التي تحب أن توجهها لجمهورك الذي يحبك ؟ ماذا تحب أن تقول ؟
ساد سكون شفيف ، ابتسم المذيع ، ملتفتا نحو مشاهديه قائلا :
_ فاصل .... ونواصل . بشرى أبو شرار

قصة قصيرة

أوسمة ... ونياشين

إلى محمد الذي يسكن آخر شارعنا
الطويل

صديقي دوما تلطخ يده البقع السوداء ، وتسكن على خط أظافره أخاديد من الزيوت الداكنة ، يتوارى لون بنطاله خلف دهانات ألوانها ثائرة ، الأحمر يلتهم الأخضر ، والأصفر يصاحب الأبيض ، لم يمر بدارنا منذ زمن طويل ، والليلة كان واقفا على ناصية شارعنا ، يصافح ويحضره الكلام دون توقف ، اقترب مني ، سالته عن سر الغياب :

_ كنت في مأمورية .
_ أين ؟
_ شمال سيناء .
لا تقل لي أنك كنت في أتون الإنفجار ، حين هدم الجدار ، وعبر الفلسطينيين....
_ نعم كنت هناك ، ورأيت ما لا تصدقه عين .
_ لكن مهمتك هي صيانة محركات السيارات الخاصة بالجيش .
_ كلفت بصد الحشود الآتية نحونا ، وإجبارهم على العودة داخل الشريط الحدودي .
_ هل صحيح أن حدث اشتباك وصدام بينكم وبين الغزاويين ؟
_ يوم صدر قرار منع دخولهم ، ثاروا ، وعبروا عن رفضهم ، ضربوا من نيران رشاشاتهم في الهواء ، لا تظن أن فوهة بنادقهم صوبت نحونا ، كانت كلها في الهواء ، لكن البعض قذفونا بالحجر ، وبقطع الزجاج ...
_ وماذا فعلتم إزاء هذا التحول ؟!
_ كنا نأخذهم لصدورنا ، ندفعهم عن الخط الحدودي ، بكينا ونحن الرجال لهول ما رأينا ، كانت الدموع جسرا ما بيننا وبينهم ...
داهمته ابتسامة مباغتة :
_ بالأمس كنا في حفل لتسلم النياشين والأوسمة .
_ لأي مناسبة ؟
_ لحسن أدائنا .
_ أوسمة .... ونياشين !!!.......

بشرى أبو شرار

قصة قصيرة

مرثية الليل .....

أتنفس من عتمة ليل ، يتوشح بالغموض ، بمفردات وحيدة ، تتقافز على وشيش المطر ، تترصد ذاكرتي ، تخترق كياني ، تستقر على مساحات جلدي ، تنفذ لقلبي تنهيدة من بلورة الدمع ، اسقط فيها ، فتشخص في كياني الغريق وجوه ، على مساحة الأهداب ، ما أن تسدل ، حتى تنداح لفراغ سحيق ، تتعربش حكاياتهم على حبل هواء ....
في هذه الليلة يستنيم صوتي على قاع حنجرتي .....
صوتي قيثارة فرح وحزن ، يصوم الليلة عن الحكايات ، تتأرجح ذاكرتي في ثنايا روحي ، من صباح ربيعي ، سمعت صوته :
_ سأغادر غدا إلى بلاد الثلج .
_ ليتني كنت رفيقة لك ، هل ستذكرني هناك ؟
_ ومن يضاهيك ، امرأة تشيع الدفء في أوصالي .
حكايتها قابعة في ركن منسي ، تنتظر عودة الغائبين ، تقرا كلماته المرسلة على مساحة شاشة مضيئة :
' إلى المرأة التي عشقت طيفها في أرض غير الأرض ، وحياة غير الحياة ، المرأة الأسطورة التي كنت أتمنى أن أقابلها '
' لم تتعلق مشاعري بسيدة كما حدث معك ، اليوم كدت الوقوع فريسة للحزن ، فلون صوتك دنياي ، ما اسعد من يعيشون معك '
غاب صوته ، سكنت الذاكرة ، تترصدها أصوات بعيدة :
_ أنت أيتها المشاغبة ، تعالي إليّ ، واهجري قوقعتك هناك ، لي هنا بيت من ثلاث حجرات ومكتبة ، كوني بصحبتي ليوم أو يومين ، أفتح لك الآفاق ، تصعدي لدرجات عالية ، ليلة الأمس عشت الحلم ، امرأة عارية ، تفرد جسدها على صفحة الماء ، رفعتها بين ساعدي ، صحوت من نومي ولم أنته من تقبيل كل جزء فيها .
يذوي حبل الهواء ، تغيب الأصوات ، تعجب لحالها ، وكيف تتحامل على تلك الكلمات ؟!!....
يسري في الأثير خطا مراوغا :
_ أين أنت ؟..... تعالي إليّ ، فانا المشتاق ، أنا معك بعد الثانية ظهرا .
تعرف أن هذا الوقت يخلو المكان من رواده ، تخلو الساحة لأخذها بين ذراعيه ، راغبا في سرقتها ، خطفها ، أو بالكاد ، ينتهك كل كيانها ....
ليل يصاحب هواجسها ، يتسحب ، ليتوارى خلف الأفق ، خجلا من نور الشمس ، تهمس من روحها :

_ اليوم سيحمله الفضاء إلى بلاد بيضاء ، هل أسرق من الوقت وأهمس له بكلمة وداع ، وأسترق السمع لكلمة يناديني بها ' أنت يا امرأة الأسطورة '

***** **** بشرى ابو شرار

قصة قصيرة

القادم .....

قبل أن ينتهي الطريق بي ، وقبل أن يأخذني المنحنى لأطراف أخرى من الوادي ، ظهر يمد خطاه ، يقترب مني ، أدقق في هيئته ، حزام جلدي يضبط هندامه ، قميص أنيق ، حذاء لا زال على لمعته ، توقف على برهة من الوقت أمام صناديق القمامة ، يفتح إحداها ، يحدب على حوافه ، يمد يده لعمق العمق ، يعبث بمحتوياته القابعة في القاع ....

مضيت وعنقي لاوية نحوه إلى الوراء

***** **** بشرى ابو شرار